المنهج العوفي وإعلاء كلمة الله
عند بديع الزمان

د. بنيامين دوران *

سنتناول في هذه الدراسة اولاً المعني الذي حمّله بديع الزمان لمفهوم إعلاء كلمة الله ، ثم سنسعى لتوضيح الصفات العامة لاخلاق المنهج العوفي الذي هو من المؤسسات اللازمة للتوصل الى صفحة إعلاء كلمة الله، وذلك باتخاذ الآراء العامة لبديع الزمان اساساً لذلك وخلال ذلك ستتم دراسة مؤسسة »إسلام الحرفيين« و »اسلام المجتهد« التي تشكل مختلف الاصناف »للأقلية الرائدة« للكادر الذي يحمل اخلاق المنهج العوفي للتوصل الى صفحة إعلاء كلمة الله. وبسبب دخول النظرة الكاملة للعالم بشكل عام، داخل مفهوم اخلاق المسلك، فإننا سنتناول الاحداث الاجتماعية والسياسية فقط، وذلك بمقدار قربها من الاقتصاد والنشاطات الاقتصادية ، وسنتناول الاقسام المستبقية منها في دراسة اخرى.

بديع الزمان ومفهوم »إعلاء كلمة الله«

يُحمّل بديع الزمان معنى الحضارة الاسلامية لمفهوم إعلاء كلمة الله، ويسعى لتعيين البناء الارضى اللازم للوصول الى هذه الصفحة. وبديع الزمان يختلف عن السلف، حيث يقول انه لا يمكن في العصر الحالي إعلاء كلمة الله الا »بالترقي مادة والدخول في الحضارة الحقيقية« (١) وبنفس الشكل نجده يقول »سنجاهد ضد الفقر واختلاف الافكار اللذين هما العدوان اللدودان لإعلاء كلمة الله وذلك بسلاح العلم والفن« (٢) وبهذا يشير إلى العلم والتكنولوجيا اللذان هما المحركان الاساسيان لصفحة إعلاء كلمة الله. حتى انه يتجاوز ذلك قائلاً بأن الذي يمنع إعلاء كلمة الله سيكون مانعاً للشريعة« (٣) وسيكون من المفيد ان نقف قليلاً عند بديع الزمان: وسأتناول إعلاء كلمة الله في دراسة اخرى بشكل مفصّل ان شاء الله.

إن حالة الحركة الحديثة للمجتمع المسلم تأتى على صفحة سميتها »صفحة الفضيلة«.

عندما ندرس تاريخ المجتمعات الاسلامية- واشرنا الى بعض العناصر المميزة بالاقلام الملونة - يظهر امامنا خطاً بيانياً معناه: إن المجتمعات الاسلامية بشكل عام انطلقت من صفحة يمكن ان نسميها »الانهيار« او »صفحة الانهزام الاضطراري الرسمي« الى »الصفحة الحسنة السرية والهزيمة الاضطرارية«، ومن هذه الصفحة الى »صفحة الأزمة والصراع«؛ ومنها تصل الى »صفحة الانهزام السري والحسن الاضطراري«. وبعد هذه الصفحة تستمر الوتيرة بالتكرر »الانهزام السري والحسن الاضطراي«؛ »الازمة والصراع«؛ »الصفحة الحسنة السرية والهزيمة الاضطرارية« وتعود مرة اخرى الى »الانهيار« او يمكن ان تبدأ هذه الحركة في صفحة الفضيلة وتستمر حتى صفحة »الانهيار« والذي يهمنا هنا هو صفحة إعلاء كلمة الله التي تعادل صفحة الفضيلة.

والذي يجب ان نوضحه هنا ان صفحة إعلاء كلمة الله ليست ذات بعد واحد او متجانسة. بل العكس ان هذه الصفحة تُعين من قبل خلفيات المجتمعات، ومستواها التجريبي وصفة احتياجاته ومستوى الشدة وغيرها من المحركات. وبالنسبة لي، فقد شهدت حتى الآن صفحتان لإعلاء كلمة الله في ميزان المجتمعات الإسلامية:

إحداها في عصر السعادة وخير القرون والثانية هي الحضارة العثمانية التي تقابل القرن الخامس عشر والسادس عشر. واود ان ابين ان صفحة إعلاء كلمة الله لا تشمل المجتمع المسلم بالكامل. اذ بينما تكون الامة في حالة انهيارعام تكون بعض المجتمعات الاسلامية في صفحات قريبة من صفحة إعلاء كلمة الله. او ربما يكون العكس فبينما تكون الامة في صحفة إعلاء كلمة الله تكون بعض المجتمعات الاسلامية في صفحات متخلفة.

وإذا قيّمنا الامة من منظور المرحلة التي نعيشها اليوم نستطيع ان نقول اننا في »صفحة الازمة«؛ لكننا ننتقل بسرعة الى صفحة إعلاء كلمة الله.

وكما بينا في إحدى دراساتنا (٤) نستطيع ان نلخص الميزات العامة لصفحة إعلاء كلمة الله التي توافق هذا الزمن على الشكل التالي: هذا المستوي هو سقف امة لم تتشكل بنشاطات وخلفيات الجماعة، والقوم، والدولة فقط، بل بغيرة امة كاملة والخلفيات المعرفية، والتكنولوجية والثقافية والفكرية. والحركة الاولى بشكل طبيعي ستبدأ بنشاطات وديناميكية القطاع الذي سميناه »الاقلية الرائدة« والتي تلتقي في »البنية الصغيرة« والتي نسميها »بنية التجديد« لكن هذه الحركة ستصير مع الزمن حركة شعبية وستنسب الى الامة.

وهذا المستوى له بعدين بشكل عام: احدهما البعد الذي على شكل طراز الحياة المنطوي على الداخل (الانسان الكامل« ؛ والآخر هو البعد الظاهر على شكل حركة للخارج. واهم مؤسسات طراز الحياة المنطوي على الداخل هي :العدالة ، الشفقة، العفة، الحكمة، المعرفة، الاحسان، والاقتصاد. وفي الاصل ان طراز الحياة المنطوي على الداخل يكون اهم واكثر مردوداً من طراز الحركة للخارج والذي هو على شكل افعال، إذا تحققت الصفات المذكورة اعلاه. يعني ،كما يقول A . Toynbee إن هذا الإنزلاق من »العالم الكبير - الكون« الى »العالم الصغير دليل على ديمومة الحضارة«(٥) وإلا فإن الحركات والافعال الموجهة للخارج مثل انعدام العدالة والشفقة والعفة والحكمة ستكون قصيرة العمر وبلا روح وبعيدة عن الشاعرية وأثناء تقييم »ماكس ويبر« للصفحات المختلفة للدين الاسلامي بيّن ان بعد الانطواء الى الداخل كان مسيطراً على الصفحة النبوية والصحابية الاولى عند الحديث عن دين النجاة. (٦)

والبعد الذي هو على شكل حركة للخارج انما يظهر في الساحات الاقتصادية والاجتماعية، والعلمية ويجد مضمونه في العلاقات الدولية. وهذه المرحلة تفيد عن بناء اجتماعي - إقتصادي بحيث يصل الى قوة وإمكان وسعة تمكنه من تقديم وزرق المبادئ العظيمة للأمة مثل »المعرفة« و »التوحيد« و »العدالة« و »الشفقة« و»الاحسان« لجميع ذوي العقل والشعور الذين يعيشون في هذه الارض في كل آن وفرصة وبشكل مستمر ومؤثر. ولنوضح الموضوع قليلاً: اي لتصل الامة المذكورة في مجال العلم، والتكنولوجيا، والاقتصاد، والثفافة، والفن، والاداب، والسياسة، والاخلاق، والعسكرية، والاتصالات، والمخابرة إلى مستوى بحيث تستطيع هذه الامة القيام بوظيفة تقديم ايديلوجيتها ومبادئها المذكورة اعلاه، وأنماط السلوك المتعلقة بهذه المبادئ وميكانيكيتها وفق المقاييس الدولية على شاشات التلفاز والسينما ومحطات الراديو وعلى صفحات الجرائد والكتب، وبواسطة جميع اجهزة الإعلام دون ضغوط ولا اجبار.

إن التوصل الى مثل هذا المستوى هو عند سعيد النورسي فرض كفاية. فبعد وصول الامة الى هذا المستوى تستطيع ايصال اوامر الله الى البشرية. وفي هذا المستوي فقط تتمكن من المحافظة على »عزة الاسلام«، لذا فان هدف »اعلاء كلمة الله« هو دفع افراد الامة على طراز حياة حركية، ووضع المثالية والآفاق الواسعة امامهم وإن التوصل الى هذه الصفحة هو امر ضروري لكل مجتمع مسلم كالصلاة والصيام. والغريب ان بديع الزمان يُقيّم التطور العلمي والفن والصناعة »فرض كفاية«.

ولنعرض بعض العبارات الاصلية التي ذكرها بديع الزمان في كتابه المحاكمات العقلية: »ان الامتثال والطاعة لقانون التكامل والرقي للصانع الجليل - الجاري في الكون على وفق تقسيم الاعمال - فرض وواجب« لم تبد الامة الاطاعة الواجبة لهذا الأمر: لكن بالنسبة لبديع الزمان »قد اودعت في ماهية البشر استعدادات وميولاً، لاداء العلوم والصناعات التي هي في حكم فرض الكفاية لشريعة الخلقة« فقد كسرت الامة هذا السوق وأطفأته بسوء الاستعمال. وقد ادى ذلك الى نتائج سلبية جداً في الدنيا والآخرة«. (٧)

وكما بينا اعلاه بشكل مختصر ان طراز إعلاء كلمة الله يختلف في كل مرحلة. ويتشكل هذا الطراز حسب احتياجات وتطلعات القطاع الذي سميناه »الاقلية الرائدة« وتطلعات الاقلية الرائدة تُعيّن من طرف تسلط وإجبار البيئة الكبيرة. ومن الغريب ان الامام الغزالي واتباعه المنظّرين بشكل واسع لطراز اعلاء كلمة الله في القرن الخامس عشر والسادس عشر، قد قاموا بالاصرار على التوجه »للانشاء المنطوي على الداخل« يعني »الانسان الكامل« . وكتاب »الإحياء« ملئ بمعاني الانشاء المنطوي على

الداخل مثل؛ الاخلاص والرياضة، التوكل، والقناعة، والرضا، والصبر. وكما ان إعلاء كلمة الله لم تذكر بشكل جدي من طرف التجارة والصناعة والعلم والاعمار، فإنه يشاهد وكأن هناك إهمال خفي لذلك. وان سبب ذلك بالنسبة لي هو احتياجات وتطلعات الناس في تلك المرحلة. اما في هذه المرحلة فرغم امتلاك الامة للعلم، والتقنية، ورأس المال، والصناعة، والتجارة وغيرها من المجالات المادية بشكل كاف، الا انها من الناحية الاخلاقية والدينية في حالة انهيار عميق. والحقيقة إن الامة في هذه المرحلة تتلوى في »يأس« عميق. واحتياجاتها للوسائط المادية محدودة. لذلك فقد انزلق إصرار »بيئة التجديد« إلى الرياضة، والخلوة، والصبر، والاطاعة، والإخلاص، وقد صار تشكل إعلاء كلمة الله على هذا الطراز.

ويجب ان نوضح الموضوع هنا اكثر كي لا يحدث بلبلة في الذهن. انه ليس من الممكن ان نبين ونعرف بوضوح طراز إعلاء كلمة الله المستقبلية. لكن من الممكن تخمين الخطوة العريضة والاستشعار من اطراف الخيوط المعينة. وبالانطلاق من فكر بديع الزمان القائل ان اعلاء كلمة الله لا تتم إلا »بالترقي المادي«،فإننا نتحدث عن العلم،والتقنية، والصناعة، والاتصالات، والفلسفة والتنظيمات العسكرية. لكن هذه المؤسسات ليست تقليد لامثالها من المؤسسات الموجودة بكثرة في الغرب، بل المؤسسات التي يطورها »المجتهد الاسلامي« بالاستفادة منها.

وهناك نقطة اخرى مهمة في موضوع إعلاء كلمة الله .في هذه الصفحة يمكن ان تتشكل بعكس استقامة تخميناتنا. نحن نتحدث الآن من التقنية، والصناعة، والتضخم المالي وغيرها، فربما تقوم البشرية في القرون المقبلة بترجيح طراز حياة بعكس ذلك. فربما تكره التطور الاقتصادي، وتشمئز من البناء والتعسكر السياسي وترجح الرجوع الى الطبيعة والتوحد معها، وقد بينت إحدى الدراسات في انكلترا ان حوالي ٧٠ بالمائة لا يريدون طراز الحياة التكنولوجية الموجود. والناقدون الغربيون اليوم بدأوا يعدّون الارضية النفسية والايديولوجية لطراز حياة مثل هذه الحياة.

إن الواقعية التي ستشكل في مثل هذا الوسط الذي تسيطر فيه الفكرة اللا علمية واللاتقنية، ستكون موافقة لطراز هذه الحياة. ومهما كانت وجهة النظر وشكلها التي ستظهر في المستقبل، فإن الواقعية المسيطرة الآن، وفي المستقبل القريب تستند الى »الترقي المادي« ، لذلك فإن اعلاء كلمة الله لا يتم إلا بالترقي المادي. ومن اجل الترقي مادة فإن هناك فاعلين بشريين مهمين. ونسمي احدهما »اسلام الحرفيين« ولندرس دوره في الطريق المؤدي الى إعلاء كلمة الله.

إسلام الحرفيين واخلاق المنهج العوفي

لنبحث اولاً عن جواب قصير لسؤال »لماذا الحرفيين«؟ وحسب قناعتي إن اول واهم مهندس لوتيرة إعلاء كلمة الله هو»الحرفي«.

ونقصد هنا من مؤسسة »الحرفي« الوحدات الانتاجية التي تملك البناء اللازم للانتاج والتوزيع ذوالمردود الجيد والمرن والتي تبدأ من حجم النشاطات ذات الحجم المتوسط والتي تميل نحو الحجم الكبير، والكوادر التي تنظم هذه الوحدات. لكننا لانقيم الوحدات التي تنشر الملكية على القاعدة والتي تؤدي الى تخريق عاطفة الملكية، والتي تتعدى الحدود القومية وتؤسس شبكات استعمار مكثفة على شكل شركات عالمية، والتي تسعى وراء الكسب الحرام والمشوب كالتخمين وانتهاز الفرص والبنوك الربوية وغيرها من الاعمال المشوبة، والتي تحصر نشاطاتها في مجالات الاستغلال الربوية والتي لا تنشط في الساحات الحقيقية ذات المردود، ضمن حدود »الحرفيين«. وإننا نعتقد ان بمثل هذا البناء لن تتحقق فائدة من الزاوية النفسية والاجتماعية والثقافية والسياسية. والى جانب ذلك فإن وحدة الانتاج التي وصلت الى البناء الفعال والمرن الى ابعد الحدود في مجال الانتاج وحجم نشاطها والذي تعدى الحدود المتواضعة والمضغوطة لمفهومنا التقليدي للحرفي، ستأخذ مكانها في تعريفنا »لإسلام الحرفيين« . والخاصية التي تجلب الانتباه اولاً هو ان المؤسسة المقترحة هي مؤسسة متوسطة او فوق المتوسطة وحجم فعالياتها. لماذا لا تدخل التجمعات الكبيرة والشركات داخل »إسلام الحرفيين« ؟ لا يمكننا هنا ان ندرس هذا الموضوع التقني إلى ابعد الحدود بعمق. لكن اود ان اقول ان لكل قطاع او قلم انتاج مقياس الادارة، الادارة الافضل

الخاص به. وفي حالة تخطى هذا المقياس، لا مفر عندها من حدوث النتائج السلبية لأبعد الحدود من الزاوية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والاخلاقية. واننا نعرف ونعيش في يومنا التأثيرات الهدامة التي تقوم بها الشركات العالمية التي هي على مستوى العالم. والغريب ان ماكس ويبر الذي تحمل وظيفة تقديس الرأسمالية ونجح فيها الى حد ما، يربط تطور الرأسمالية واستمرارها بمؤسسات الانتاج المتوسطة او فوق المتوسطة، والحرفيين الصغار وقطاع التجار.

بالنسبة لوبير إن الاساس في تطور الرأسمالية الاوروبية هو الجو الديني في المدينة الذي شكلته مجموعات معينة مثل الحرفيين وصغار التجار في المدن المستقلة ذاتياً، وفي تطور هذه المدن. إن ويبر لم يرى المخمنين في البورصات ولا الربويين المنطلقين خلف الاعمال القذرة والمشوبة، ولا القرويين المقيمين في الارياف عنصراً ضرورياً من اجل التطور الرأسمالي. وكما يدعي ويبر ان القروي يهتم بإدارة الطبيعة بالطرق السحرية، بينما المدني يبتعد عن الطبيعة فيزيائياً وإقتصادياً، وان البعد الحقيقي والاخلاقي للتدين النصراني اعدّ طراز الحياة للحرفيين وصغار التجار المدنيين والى جانب عنصر المحاسبة فالنشاط الثقافي للحرفي يحمل صفة الصدق، والعمل الجيد، والثقة واللعب حسب القواعد وغيرهما من الميزات. إن للحرفين وبعض اصحاب الحرف - مثلا عمال النسيج - وقتاً من أجل التفكر، ولذلك فإنهم قريبين من الاندفاع وراء الافكار الدينية المنظمة. اما القرويون فهم على العكس حيث يشاهد ميل قطعي نحو دين المجتمع في الاصناف تحت المتوسطة، ودين الخلاص، دين الاخلاق الحقيقي في النهاية (٨)

ويمكن ان نشاهد نفس التوجه عند عالم الاقتصاد الغربيSchumpeter. وبالنسبة له ان الذين طوروا الرأسمالية وجعلوها نظاماً يسيطر على العالم هم رجال الاعمال الذين يحملون »روحاً مبدعة« لكن كلما تطورت الرأسمالية ازدادت سيطرة الشركات الاهلية والشركات العالمية على السوق وافتقد عنصر رجال الاعمال، لذلك فإن »الهدم الخالق« يموت. وبالنسبة للمفكر، إنه كيف هدمت الرأسمالية الهيكل التأسيسي للمجتمع الاقطاعي فإنها تحفر تحت اساسها بنفس الاسلوب تقريباً. إن وحدات المراقبة العملاقة التي ظهرت في النظام الرأسمالي ابعدت الإقطاعية عن مراقبة الملكية. كما ان وتيرة الرأسمالية تهاجم دون مفر الارضية الاقتصادية للمنتج والتاجر الصغير وتخربها. وتعمل للاصناف الصناعية الدنيا الرأسمالية ما فعلته للاقسام قبل مرحلة الرأسمالية. فمن طرف تقتل المنتج الصغير ومن طرف آخر تضخم الملكية وتجعلها اهلية ثم تقتل الملكية. وإن الوتيرة الرأسمالية، تضع بدل جدران المصنع وآلاته علبة من الاسهم وتقتل حيوية التفكير في الملكية، ولا تبقي على قيمة يكافح من اجلها الناس. حيث ان »صاحب السهم« يفقد الارادة في العراك من اجل المصنع الذي يحمل اسمه ومن اجل مراقبته، وحتى الموت على سلّمه. (٩)

ومن هذا المنظور فإننا نفكر بأن القطاع الذي سميناه اسلام الحرفيين، كونه مخصوصاً بالوحدات الموجودة في الوسط وفوق الوسط، ستصير في بناء غير مرغوب به من زاوية العاطفة الاسلامية حيث يفقد العزم للعمل وعاطفة الملكية، والتطور الاقتصادي لمجمعات الشركات التي تستثمر الاوساط البشرية والطبيعية.

إن التطورات الاقتصادية الاجتماعية التي ستتحقق أثناء التوصل الى صفحة إعلاء كلمة الله لن تتم بالوسائط واخلاق الحرفة الرأسمالية . بل سيصير بالاخلاق الحرفية للمسلم التي ينتجها من مصادره الذاتية. ونحن هنا نقترح بتسمية الاخلاق بـ»اخلاق المنهج العوفي«.

المنهج العوفي وإعلاء كلمة الله

لقد بينا في دراسة اخرى لنا ان مفهوم المنهج العوفي اشتق من اسم الصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه. من المعلوم انه في الغرب يعبر عن اخلاق العمل والمنهج الحقيقي والفعال بمفهوم البوريتانى. حتى ان كثير من المفكرين الغربيين عندما يدرسون اخلاق المسلك والعمل في الاسلام يقومون بالعطف على اخلاق بوريتان. حتى ان البعض يسمون هذه الميزة في الاسلام اسم اخلاق مسلك البوريتاني، وان هذا المفهوم يميل الى الانتشار. لكن اخلاق مسلك البوريتاني

تصدر عن البروتستانية بشكل مباشر. وتسمو فوق القيم البروتستانية. مع العلم ان مصادر الالهام والمؤهلات عند المسلمين في هذا الموضوع هي الاسلام او بمعنى آخر المبادئ العامة في القرآن والحديث وحياة الصحابة. ومن هذا المنظور يجب ان يكون المفهوم متناسباً مع مصادر المؤهلات. وبهدف الغاء هذا التناقض فإنني اعتقد انه يجب ايجاد مفهوم جديد يعكس الفرق بين اخلاق المسلك البروتستاني والاسلامي بشكل واضح، لكي يوضح الحادثة بمعناها. والمفهوم الذي اريد ان اقترحه والذي يعكس اخلاق مسلك اسلام الحرفي والذي ينسب الى عبدالرحمن بن عوف احد العشرة المبشرين بالجنة وهو »اخلاق المنهج العوفي«. وهنا يخطر على عقل الانسان لماذا لم نقل »اخلاق المنهج الإسلامي«. وحسب قناعتي إنه ليس من الصحيح ان نسمي هذه الحادثة »اخلاق المنهج الاسلامي«، وذلك لان اخلاق المنهج الاسلامي تشمل في نفس الوقت اخلاق ابي ذر رضى الله عنه ورؤيته للدنيا والتي تعتزل الدنيا وتستند الى الرياضة والزهد. لكن المقصود هنا ليس اخلاق منهج ابي ذر، وانما اخلاق منهج عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهما.

ونرى انه من المفيد ان نوضح باختصار سبب اختيارنا لهذا المفهوم، وتبيان القيم التاريخية التي وفقنا لذلك. من المعلوم ان عبدالرحمن بن عوف كان من كبار التجار في مكة، وقد هاجر من مكة الى المدينة وترك كل ما يملكه في مكة. وتوجد مواد كثيرة في كتب الحديث حول نشاط عبدالرحمن بن عوف وربحه وتصدّقه. وسنكتفي هنا بنقل حادثتين تتعلقان بالموضوع. لنذكر اولاً هذه الحادثة التي نقلتها عائشة رضى الله عنها:قال: »أخبرنا عبدالله بن جعفر الرقي قال: قال ابو المليح عن حبيب ابنابي مرزوق قال: قدمت عير لعبد الرحمن بن عوف، قال فكان لأهل المدينة يومئذ رجة فقالت عائشة: ما هذا؟ قيل لها: هذه عير عبدالرحمن بن عوف قدمت، فقالت عائشة: اما انى سمعت رسول الله ﷺ، يقول. كأني بعبد الرحمن بن عوف على الصراط يميل به مرة ويستقيم اخرى حتى يفلت ولم يكد، قال فبلغ ذلك عبدالرحمن بن عوف فقال: هي وما عليها صدقة، قال وما كان عليها أفضل منها، قال وهي يومئذ خمسمائة راحلة«(١٠)

وهناك حادثة اخرى تتعلق بعبد الرحمن بن عوف: »قال الإمام احمد حدثنا عفان حدثنا حماد حدثنا ثابت وحميد عن انس ان عبدالرحمن بن عوف قدم المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الانصاري، فقال له سعد: اي اخي انا اكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالي فخذه وتحتى امرأتان فانظر أيهما أعجب اليك حتى اطلقها. فقال عبدالرحمن: بارك الله لك في اهلك ومالك، دلوني على السوق. فدلوه فذهب واشترى وباع فربح فجاء بشئ أقط وسمن. ثم لبث ما شاء الله أن يلبث فجاء وعليه ودع زعفران فقال رسول الله ﷺ »مهيم؟« فقال: يا رسول الله تزوجت إمرأة، قال: »ما أصدقتها؟« قال وزن نواة بذهب، قال »أولم ولو بشاة«.قال عبدالرحمن: فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت ان اصيب فيه ذهباً وفضة« (١١)

ان منهج عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه ومفهومه للحياة الفعالة وسلوكه الاسلامي في الانفاق والاحسان، تشكل نموذجاً مهماً للمسلمين اليوم. وكون هذا الصحابي الجليل أحد العشرة المبشرين بالجنة يجعل هذا النموذج ذا مغزى أكبر.

إن الميزات العامة لأخلاق المنهج العوفي هي ميزات تستند الى المبادئ القرآنية. ويمكن ان نرتبها من زاوية العمل والمنهج على الشكل التالي: ١- الشوق ٢- الحكمة ٣- الاحسان ٤- الإتفاق ٥- العدالة ٦- القدسية ٧- الرضا ٨- المعرفة. وسنتناول هنا مبدای الشوق والحكمة فقط. وسنسعى لانتاج شكل الانسان والتنظيمات الاجتماعية التي توجبها هذه المبادئ من المفهوم العام لبديع الزمان.

الميزة الاولى لأخلاق المنهج العوفي: الشوق

من المعروف ان الشوق هو مستوى من الرغبة والطلب أعلى من درجة الاحتياج. مع العلم ان بديع الزمان يقول في معرض لفت النظر لهذا المعنى »الاشتياق هو الاحتياج المضاعف، والانجذاب هو الاشتياق المضاعف« وبتعبيره الاصلي: »ان لكل شئ في الكون - كما يشاهد بالتجربة - نقطة كمال، وله ميل اليها، فتضاعف الميل يولّد الحاجة، وتضاعف الحاجة يتحول الى شوق، وتضاعف الشوق يكوّن الانجذاب، فالأنجداب والشوق والحاجة والميل... كلها نوىً لامتثال الاوامر التكوينية

الربانية وبذورها من حيث ماهية الاشياء« (١٢)

»الشوق« و»الاشتياق« كلمتان مشتقتان من نفس المصدر. وإذا قيمنا عنصر الشوق من زاوية اخلاق المنهج نقول: يجب ان يكون الحرفي بشوق جدي لمنهج الاسلام ولإجراء حرفته. وعليه ان يتجرد من كل اشكال العطالة والكسل والخمول ويسعى للدنيا وللاشغال الدنيوية بكل حيوية ونشاط. ويجب ان يكون صاحب مستوى عال من النشاط والشوق وعلى معرفة بان اعمال الدنيا هي عبادة وسُلّم للتوصل الى إعلاء كلمة الله إنطلاقاً من المفهوم بأن الدنيا مزرعة الآخرة. وانطلاقاً من هذه الحقيقة كان بديع الزمان يشوق الامة باصرار على الابتعاد عن العطالة والاكتفاء بالموجود ويحثهم على العمل بشوق: ».ان اشد الناس شقاءً واضطراباً وضيقاً هو العاطل عن العمل، لأن العطل هو ابن اخ العدم. أما السعي فهو حياة الوجود ويقظة الحياة«(١٣) فضلا عمّا بيناه سابقاً من ان بديع الزمان يعدّ التطور الصناعي والاقتصادي فرض كفاية تتحمله الامة.

إن أهم ميزة للشوق هي قوة الروح العملية العليا واتحاد الشخص مع حرفته. او بتعبير اوضح، يجب ان يكون إسلام الحرفي صاحب هوية فعالة وروحانية عالية. وأن يكون في حيوية ونشاط بحيث لا يستوي يوماه. وما دامت إعلاء كلمة الله صفحة اجتماعية تتحقق نتيجة هذا النشاط والانطلاق، لذلك يجب ان نرى ونقيّم النشاطات التجارية والاقتصادية وقرارات اسلام الحرفيين انها نشاطات وقرارات موجهة لإعلاء كلمة الله بشكل مباشر.

ويرى بديع الزمان ان من اسباب تخلف المجتمعات الاسلامية من الزاوية الاقتصادية والتجارية في القرون الاخيرة هو كسر شوق الامة وميولها للعمل والغاؤه من طرف بعض القطاعات المختارة. اما بالنسبة لبديع الزمان؛ فإنه يقول ان روح الآية وأن ليس للانسان إلا ما سعى يتفجر منها الميلان الى السعي. وقد كسر هذا الميلان والشوق بتلقينات البعض، وقد انتشر بين المسلمين بذلك تواكل وكسل«. والذين كسروا هذا الميلان والشوق هم الذين لا يعرفون ان إعلاء كلمة الله في هذا الزمان »متوقف على الترقي المادي« والذين لا يفهمون ان الدنيا مزرعة الآخرة، والأهم من ذلك ربما يكونوا الوعاظ الذين لم يستطيعوا التفريق بين »إلجاءات« القرون الوسطى والزمن الذي نعيش فيه (١٤).

وكأن بديع الزمان بتعبيره هذا يوجه كلامه إلى ابراهيم حقي وامثاله. حيث يقوم ابراهيم حقي بتشميل مفهوم التوكل الذي عرضه الامام الغزالي والمخصوص بالنخبة في موضوع الرزق بمعنى »التخلص من الاسباب والتوجه إلى الله« (١٥).

»التوكل ابتعاد عن الخلق والاعتماد الكامل على الله. وقطع الأمل من يد الخلق والاعتبار والثقة بما عند الله. وترك التدبير والتوصل إلى التقدير، وترك العمل للغد. (١٦)

إن التوكل على الله في موضوع الرزق وفي سائر الاحتياجات لازم لكل شخص لأمرين. الاول هو التفرغ للعبادة والخشوع. وذلك لان الذي لا يتوكل على الحق وينشغل بتأمين الرزق والاحتياجات لا يستطيع الانشغال بالعبادة.. وصاحب التوكل لايخزن الارزاق للغد ولا يشعر بالغم في مسألة رزق الغد. وذلك لأنه يكون قد وجد نفسه غارقاً في بحر نعمة الله الواسع« (١٧)

لكن بديع الزمان يحمل مفهوم »التوكل« و »التفويض« معاني مختلفة، ويتفق مع الإمام الغزالي الذي يسميه استاذي في كثير من النقاط. يقول:» ان تفويض الامر الى الله في ترتيب المقامات كسل، أما في ترتّب النتيجة فهو توكل. والرضا بقسمته وثمرة سعيه قناعة، تقوّي من ميل السعي أما الاكتفاء بالموجود فتقاصر في الهمة.

فكما ان هناك طاعة وعصياناً تجاه الاوامر الشرعية المعروفة، كذلك هناك طاعةٌ وعصيانٌ تجاه الاوامر التكوينية.

وغالباً ما يرى الاول ـ مطيع الشريعة والعاصي لها ـ جزاءه وثوابه في الدار الآخرة. والثاني ـ مطيع السنن الكونية والعاصي لها ـ غالباً ما ينال عقابه وثوابه في الدار الدنيا.

فكما ان ثواب الصبر النصرُ، وجزاء البطالة والتقاعس الذلُّ والتسفّل. كذلك ثواب السعي الغنى وثواب الثبات التغلب.

ان العدالة التي لا مساواة فيها ليست عدالة.« (١٨)

يطرح بديع الزمان موضوع التوكل بشكل واضح ويخلص الأمة من الازمة في هذا الموضوع: »فالايمان اذن يقتضي التوحيدَ، والتوحيدُ يقودُ الى التسليم، والتسليم يُحقق التوكلَ، والتوكلُ يسهّل الطريقَ الى سعادة الدارَين. ولا تظنن أن التوكل هو رفضُ الأسباب وردّها كلياً، وإنما هو عبارةٌ عن العلمِ بأن الأسبابَ هي حُجُب بيَدِ القدرة الإلهية، ينبغي رعايتها ومداراتها، أما التشبثُ بها أو الأخذ بها فهو نوعٌ من الدعاء الفعلي. فطلبُ المسَبَّباتِ اذن وترقّب النتائج لا يكون الاّ مِن الحقِّ سبحانه وتعالى، وأنّ المنةَ والحمدَ والثناءَ لا ترجعُ الاّ اِليه وحدَه.« (١٩)

والميزة الثانية لسوق العمل هي اتحاد اسلام الحرفي بحرفته، وحتى بتعبير بديع الزمان »الفناء في حرفته«، »ان ترك المستعد لما هو أهل للقيام به، وتشبثه بما ليس اهلاً له، عصيان كبير وخرق فاضح لطاعة الشريعة الكونية (شريعة الخلقة). اذ من شأن هذه الشريعة: انتشار استعداد الانسان ونفوذ قابليته في الصنعة واحترام مقاييس الصنعة ومحبتها وامتثال نواميسها والتمثل بها. وخلاصة الكلام : ان شأن هذه الشريعة؛ الفناء في الصنعة«(٢٠)

كي يستطيع كل إنسان التوحد مع حرفته والفناء فيها يجب ان يرجح الشخص حرفة تتناسب مع استعداده وقابليته وخبرته في هذه الحرفة. وإلا فإن النتيجة ستكون سلبية بلا شك.

والميزة الأخرى لأخلاق المنهج العوفي الذي يوصل إلى صفحة إعلاء كلمة الله، هي كون اسلام الحرفي صاحب روح عملية لأبعد الحدود. وينعكس ذلك اولاً على فهم الحرفي لحرفته ومعرفة دقائقها واستيعابها بأفضل شكل واسلمه. وبعد هذه المرحلة، قيامه بتطوير هذه الحرفة بالمقدار الذي يمكن تطويرها. إن العقلية الحرفية التي توجبها إعلاء كلمة الله هي طراز حياة حيوي وحركي يسعى وراء الجديد دوماً. اما إجراء الحرفة بأخلاق حرفية خاملة ومغلقة وكما شاهدها من والده وجده يدل على اخلاق حرفية ساكنة وخاملة، وبمثل هذا المفهوم لا يمكن تطوير الميول التي توجبها إعلاء كلمة الله.

إن اكبر مأزق تواجه اسلام الحرفيين والتي سيضطر لمصارعتها، هي قوالب العادات والتقاليد. إن تحريك العادات والاصول والاعراف المتراكمة على مدى القرون الطويلة والمتلاحمة مع بعضها من مواضعها عمل يتطلب مقاومة إرادة عالية وصرف طاقة كبيرة. وإذا كانت هذه الامور موجودة كعنصر اساسي في كتب »بعض الذوات« الذين تثق بهم الامة، فإن هدمها وإقامة ما هو متني »كتابي«مكانها صعب جداً. لكن إذا كانت هذه العادات والاعراف تطرح وتفرض طراز حياة ساكن وخامل، فإن اقتلاعها من مكانها وإقامة طراز واصول كتابية هو نشاط ضروري وذو مغزى. فمثلاً إذا بحثنا عن اسباب الفقر كما فعل ابراهيم حقي حيث قال ان اسباب الفقر هي حرق ورق البصل والثوم، وكنس البيت ليلاً، وتجميع القمامة في المنزل، ونكش الاسنان بالعيدان الوسخة، والجلوس في عتبة الباب، والاستناد الى جناح الباب، والذهاب الى السوق مبكراً، وتمشيط الشعر بمشط مكسور الاسنان، وإطفاء القنديل بالنفس(٢١) وغيرها من الامور غير العقلية او متنية »كتابية«، فإن على عاتق إسلام الحرفي اعمالاً كثيرة وعليه ان يهدم جبالاً كثيرة.

ومن هذه الزاوية فإن الأولوية التي سيقوم بها في تقنية نشاط الانتاج وموضوع طراز الانتاج هي تحريك البناء الساكن التقليدي من مكانه اولاً وهدمه مع مرور الزمن. ومن اهم عوامل اسلام الحرفي تنسيق كل اشكال تقنيات الانتاج التي تكسب السرعة في التوصل الى اعلاء كلمة الله وذلك انطلاقاً من مبدأ »الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو احق بها« او تحقيقها.

وبالطبع يجب ان لا يستنتج من ذلك تخريب جميع التقاليد. وان مبدأنا في هذا الموضوع هو عدم الارتباط المطلق بالتقاليد، فإذا كانت توافق المبادئ القرآنية تقبل ويصر على الاستمرار بها.

وخلال تطوير اخلاق الحرفة الكتابية الجديدة والحركية يجب ان نفسر من جديد التلقينات الموجودة في تقاليد حرفنا وخاصة عند الحرفيين على شكل : »سد باب الحرص، وفتح باب القناعة والرضى، وسد باب الشبع واللذة، وفتح باب الجوع والرياضة، وسد الباب الذي بجانب الخلق، وفتح الباب الذي بجانب الحق..« ووضع »الجاءات« زماننا بعين الاعتبار. ويجب تناول مفاهيم »القناعة« و »الرضا« و»الرياضة« بشكل خاص وتحميلها معاني جديدة بوضع القرآن والحديث وحياة الصحابة

بعين الاعتبار.

الميزة الثانية لأخلاق المنهج العوفي: الحكمة

الحكمة في المراجع الاسلامية هي »التناسق بين العقل والقول والفعل«؛ »الصفة القيّمة الناتجة عن اتحاد العلم والعدل والاخلاق«. أما معناها الاصطلاحي فهو كثير الشمول. وخلال تفسير الآية الكريمة ....ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيراً كثيراً....(٢٢)

يحمل الماليلي حمدى يازير الحكمة ثلاثة وعشرين معنى. ولنذكر بعضها هنا ونسعى للوصول الى مغزى الحكمة: »الحكمة؛ هي الإصابة في القول والفعل. الحكمة؛ علم العمل. الحكمة؛ فهم معاني الاشياء. الحكمة؛ ايجاد شي جديد. الحكمة؛ وضع الاشياء في موضعها و...« (٢٣)

ويقول بديع الزمان: »ان تعقب الصانع الجليل - بمقتضى اسم »الحكيم« لألطف صورة في كل شئ واقصر طريق، وأسهل طراز، وأنفع شكل.. يدل دلالة واضحة على ان الفطرة لا إسراف فيها قط ولا عبث، فما من شئ الاّ وفيه نفعه وجدواه، وإن الاسراف مثلما ينافي اسم »الحكيم« فالاقتصاد لازمُه ومقتضاه ودستوره الاساس.« (٢٤)

وانطلاقاً من المفاهيم العامة التي طرحها الماليلي وبديع الزمان للحكمة نستطيع تعريفها على الشكل التالي. »الحكمة هي استخدام النية والتخطيط والقرار وجميع المعطيات العلمية والبحث وايجاد الأفضل. وبشكل عام إننا نستطيع تقييم الحكمة بأنها الابتعاد عن جميع الاهواء والهواجس والتمايل والعادات اللاكتابية خلال الانتاج والاستهلاك والتوزيع وتنظيم العمل، والعلاقات الفردية والسياسية، واتخاذ القرارات الدنية، وانها وتيرة حركة موضوعية ومتزنة وعقلية وعلمية وحقيقية. إن الحكمة ببعض جوانبها وإن لم تكن بجميع ابعادها صاحبة وجهات متوازية مع »العقلية« بمعنى Weberyen. وخاصة إن ابتعادها عن الكيفية والهوى في النقاط العلمية والموضوعية يجعلها تتقاطع بشكل واسع مع عقلية Weberyen.

إن »العقلية« بالنسبة لويبر هي حادثة زيادة المحاسبة والرقابة المنظمة لحياة الانسان والمستندة الى التعليمات والقواعد العامة التي تترك جانباً المقاييس التقليدية والرجوع الى المواطن السحرية في جميع وجهات حياة الانسان. إن وسائل المراقبة والمشاهدة البيروقراطية التي تمنع الارتباط بالمؤسسات التقليدية في الحياة العقلية والدنيوية، تسيطر مع مرور الزمن على النشاطات الصناعية والسياسة. وإن العلاقات الاجتماعية في الحياة العقلية والدنيوية غير شخصية وتستند الى اساس الرسمية. لأن البيروقراطية تقدم للبشر اكثر الطرق تأثيراً من أجل الوصول إلى الغايات المعينة. وإن الانظمة الحقوقية العقلية في الحقوق تأخذ مكان كيفية التقاليد المقدسة، وعدالة القاضي واستخراج القرار الحقوقي. ويدخل المجتمع تحت حكم شروط المصنع من زاوية التنظيم والتوصل الى البناء الواقعي مع مرور الزمن(٢٥).

يتابع ويبر طراز تعبير Schiller ويشير الى شرط المجتمع الدنيوي المعاصر »تخليص العالم من الشعوذة«. ويقصد ويبر بذلك ان الناس لم يعودوا مغلقين في العالم السحري والخارق المقدس. ومبدؤه »لا توجد قوى مبهمة مؤثرة لا يحسب لها حساب... ولا حاجة بعد للرجوع الي الطرق السحرية من اجل التغلب على الارواح او استمداد المساعدة منها مثل المجتمعات البدائية«. ورغم ذلك إن التقدم والتمدن الذي حققه التطور العلمي، يأتي بمعنى انه لم تبق حياة طبيعية او حدود لا ينبغي تجاوزها في حياة الفرد. والنضوج لم يعد بمعنى تعلم الفرد اوالعشيرة او المجتمع العلم والعرفان، بل يأتي بمعنى توصل الفرد الى مخزون معين من المعرفة التي تكبر باستمرار (٢٦).

ورغم ان بديع الزمان لا يرى كما يرى ويبر ان المجتمعات ستستقل عن جميع المصادر الخارقة وستنظم حياتها تحت ضوء العقل والتجارب فقط، إلا انه يرى ان الناس في العصر الحديث لن تنظم حياتها كما فعلت في العصور السابقة على الحس والهوى والتمايل، بل على العلم والعقل والبرهان. ويطرح بديع الزمان كلامه في هذا الموضوع على الشكل التالي: »ان البشرية في اواخر أيامها ستنساب الى العلوم، وتنصب الى الفنون، وستستمد كل قواها من العلوم والفنون، فيتسلم العلم

زمام الحكم والقوة« (٢٧). اوالحقيقة إن هذا التطور في الغرب كان تطوراً مهماً جداً من زاوية هدم التعصب، والارتباط الاعمى بالرهبان الذي استمر طيلة قرون في الغرب ورفع الستارة للبحث عن الحقائق. لكن العلم في الغرب صار كنيسة مع مرور الزمن، وصار عبارةعن ادارة واحدة استبدادية تعين طراز العيش والتفكير للمجتمعات. وقد كانت نتائج هذه التطورات هدامة جداً. (P. Feyeraberd).

أما وجهة بديع الزمان للحياة والرؤيا العالمية المستندة على العلم والعقل فتتخذ المؤهلات الكتابية اساساً لها بنفس الوقت وتناولها »بحيث يخرج ضياء العقل ونور القلب«. وكي نستطيع التحرك بحكمة، فإنه على منتسبي الدين الاسلامي دين العقل والمنطق ان يعودوا بسرعة الى الكتابي، وعليهم ان ينسلخوا عن السلوك اللاعقلاني واللامنطقي الناتج عن »الجاءات، القرون السابقة. إن عقلية الاسلام تجاه الاديان الاخرى قبلت من طرف كثير من المفكرين الغربيين. وقد توصل المفكر الماركسي الشهير ماكسيم رودينسون الذي درس الموضوع بالتفصيل الى نتيجة ان الاسلام دين عقلي. (٢٨).

وعند إيضاح الجبهة العقلية والواقعية للاسلام يقول بديع الزمان: »نحن معاشر المسلمين خدام القرآن نتّبع البرهان ونقبل بعقلنا وفكرنا وقلبنا حقائقَ الايمان، لسنا كمن ترك التقلد بالبرهان تقليداً للرهبان كما هو دأب اتباع سائر الاديان!

وعلى هذا فان المستقبل الذي لا حكمَ فيه الاّ للعقل والعلم، سوف يسوده حكم القرآن الذي تستند أحكامُه الى العقل والمنطق والبرهان«(٢٩)

إذا كان العلم شرطاً مهماً واولياً لا يمكن العدول عنه من اجل العيش بشكل يوافق الحكمة فكيف سنحصل على هذا العلم؟ وما هي المراحل اللازمة للوصول الى هذا المستوى؟ علينا ان نجد جواباً لهذه الاسئلة.

وبما ان القرآن سيحكم في المستقبل وسيتم استنباط جميع التنظيمات الاجتماعية من القرآن فإن الحكمة في هذه الصفحة تحتاج الى اشخاص ناجحين واصحاب معرفة وميزة على درجة مجتهد من اصحاب الاختصاص العالي من رجال الفكر والعلم.

عندما يتم تحويل الحياة الاجتماعية من صفحة الايمان الى صفحة الشريعة تجلب معها بشكل اضطراب الكوادر اصحاب النشاط العالي من زاوية الذهن والفكر. وكما بينا في دراسة اخرى (٣٠) ان هناك حاجة لمنظّرين يضعون النظريات »لصفحة الشريعة« التي يطرحها بديع الزمان . ويمكن عد كل واحد منهم »مجتهداً« في مجاله. لكن هؤلاء لا ينتجون النظريات في موضوع العبادات وغيرها من المجالات بل في السياسة، والاقتصاد، والحقوق، والتنظيمات الاجتماعية العامة. لكن هؤلاء ليسوا مجتهدين مطلقين كالإمام الاعظم والامام الشافعي بل هم اصحاب اختصاص عالي في بعض المواضيع المعنية »مجتهدي قضايا« وكي يكتسب تناول بديع الزمان للنظام العام والحكمة وحدة معينة يجب اكمالها بمؤسسة »المجتهد« إننا نستطيع عد الخواص العامة لمؤسسة »المجتهد الإسلامي« التي نظن انها ستتشكل خلال ٢٠-٣٠ سنة المقلبة على الشكل التالي:

إسلام المجتهد سينشأ في مزرعة الكادر القدسي الذي يسير بخدمة الايمان بشكل ناجح والذي سميناه إسلام الحرفي. والحقيقة ان عزيمة اسلام الحرفي موجهة لإعداد مثل هذا الكادر. لذلك فإن مهندسي صفحة الشريعة سيخرج من »جماعة« إسلام الحرفيين. وذلك لان مخزون اسلام المجتهد من زاوية اصول المهنة، ومن زاوية التجهيزات الداخلية - كالتقوى، والثبات، والشفقة، والهدى، والرضا - لهااهمية كبيرة وموضحة. وهذا الكادر مثل »الهدي النابت« لا ينبت بشكل عشوائى. بل يجب ان يكون صاحب خلفية قوية التحكيم.

وبالاستفادة هنا من التوجهات والميول للتاريخ الاسلامي ومن تناول سعيد النورسي للموضوع بشكل عام نستطيع ان نشاهد اولياً الاوصاف الرئيسية لإسلام المجتهد:

إن اوضح وصف لإسلام الحرفي هو حريته الى ابعد الحدود في الفكر والتفكير. وإنه بمعرفته ان الموضوع الذي يدرسه نسبياً

وإضافياً الى اقصى الحدود، يقوم بمناقشة كل موضوع خارج الساعة »المطلقة« بعمق ويقيّمه وينتقده. وكون مخزوناتهم محدودة جداً فلا توجد في عالم اذهانهم مقدسات. وبنفس الوقت لقد تطهر من جميع العلاقات المعيارية التي تشكل حدوداً في موضوع الفكر والتفكير. ولا يعطون اية قيمة تحدد وتعيق تفكيرهم الحر.

ومن ميزاتهم الاخرى انهم تخطوا الاهواء البشرية كالارتباط بالمادة، والمقام، والمنصب. والوضع الاجتماعي لهذا القطاع يؤمن لهم المكانة العليا والدخل الجيد ومستوى من الثروة. وسيكونون من هذه الزاوية قد تطهروا من كل ارتباط مادي ومكانة يمكن ان تشكل لهم مخزوناً في المجال الذهني والعقلي. وكما سنشاهد فيما بعد، ان كونهم لا يحملون اي ضعف تجاه المادة والمقام، فإن الميكانيكية ونظام الفكر الذي سيشكلونه سيكون مطهراً من الميول البشرية بنفس القدرة والنقطة التي نريد ان نوضحها بشكل طبيعي؛ هي عدم كون النخبة مرتبطة بالمادة والمقام لحد »العبادة« ، والا فإن لكل انسان احساس قلبي بالميل الى المادة والمقام. لكن هذا الإحساس صار في المرتبة الصغرى عندهم وبعيداً عن كونه رابطاً لهم.

والميزة الاخرى ايضاً انهم عمروا عالمهم الداخلي بأوصاف »النبوة« والتي نسميها »الإنشاء المنطوي للداخل« إن اهم ميزة خلال وتيرة »الانشاء المنطوي للداخل« هي جعل جميع اهداف إسلام النخبة لمرضاة الله، ويجب عدم تحديد اي هدف آخر لذلك . وكي يملكوا هذه التجهيزات الداخلية يجب ان تكون الخطط الخلفية محكمة بخدمات الايمان والقرآن.

وكيف تحققت خدمة الايمان وخلصت البشرية بنجاح من الكفر المطلق والظلم الخانق، فإن إسلام المجتهد سيخلص البشرية من الاستعمار، والنهب، والظلم، والتغريب، والمتاعية والعبودية بنفس النشاط والنجاح.

وبعد هذا المدخل فإننا نستطيع تعيين الحكمة بالاستناد على آراء بديع الزمان المختلفة على الشكل التالي.

١- يجب ان يتخذ نموذج عيش »منهجي ونظامي« في الحياة كأساس. إن العيش المنهجي هو رفض جميع اشكال العيش غير المنظمة والعشوائية والفوضوية والتعبير عن اسلوب العيش المخطط والنظامي والواقعي. (٣١)

إن للعيش المنهجي وجهات وانعكاسات على الزمان والاستهلاك والانتاج والتوزيع. إن الوجهة التي تنظر الى الزمان للحكمة اوالعيش المنهجي الذي هو فرع من الحكمة هي كيفية استخدام الشخص للزمان بشكل مؤثر. وتحركه بعقلية ان الزمان هو افضل رأسمال يملكه الانسان انطلاقاً من المثل الشعبي »الوقت نقد«.

٢- تقسيم الزمان الى مرحلتين طويلة وقصيرة وإجراء المشاريع والخطط على هذا الاساس، وتعيين النشاطات التي ستتم على مراحل قصيرة والنشاطات التي ستتم على مراحل طويلة بالتفصيل. ويتم هذا على مستوى الشخص ومستوى الامة بنفس المقياس. وعلى الامة ان تقوم بخطط ومشاريع قصيرة وطويلة الامد. ويمكننا ان نقيّم كلام بديع الزمان مع »سعيد وحمزة الذي يعيشون بعد ثلاثمائة سنة« بأنه يدل على محاولته لإعداد ارضية لمرحلة طويلة. وفي النتيجة ان المؤمن الذي يريد ان يعيش بشكل يناسب الحكمة ان لا يكون صاحب زمان فارغ وعاطل.

الحكمة في الانتاج تعني الانتاج الافضل ذو المردود العالي. يعني انه يري الانتاج بأقل المصاريف وافضل الارباح. إن المجال الذي تكون فيه الحكمة اهم موضوعاً هو الطبيعة. إن الله عز وجل خلق مصنعاً في الكائنات، وهذا المصنع يعمل بأفضل مردود. حيث يحصل على أطنان من التين »الربح« من بذرة تين صغيرة »المصاريف«. ويخزن آلاف الأطنان من الطاقة النووية في قطعة ذرة.

من أجل التوصل الى الحكمة في الانتاج يرى بديع الزمان انه يجب تحكيم »دستور تقسيم العمل« وخلال الاختصاص في قطاع الانتاج على كل انسان ان يختص بالفروع او الحرف حسب قابليته وميوله واستيعابه؛ وعدم اشتغاله في الحرف التي لا توافق قابليته حتى ولو كانت تلاقي الاهتمام من طرف الناس.

يرى بديع الزمان ان عدم اشتغال الناس بالحرف التي توافق قابلياتهم واستعدادهم وترجيحهم الحرف التي تلاقي الاعتبار من طرف المجتمع هو مرض يفيد »معصية قوانين الخلق بشكل مباشر«. ونتيجة هذا البناء بدون شك هي الفشل، وحتى الانهيار.

وانهيار نظام المدرسة »المدارس التقليدية« في المراحل الأخيرة للعثمانيين كان نتيجة مثل هذا البناء. ويرى بديع الزمان انه بينما كان يجب ان يحل الكوادر المنتسبون للتعليم في المدارس صفات اللطف والإرشاد والنصيحة كي يؤدوا وظائفهم فيها، كان هؤلاء يتشكلون من الاشخاص اصحاب الميول للاغوات. وبدل ان يقدم هؤلاء بالعلم تحكموا بالآخرين.

والنقطة الاخرى المهمة في موضوع عيش الحكمة هي القضاء على العناصر التي تمنع تحول الطاقة والاستعداد الكامن عند الانسان الى حالة حركية. ويجب تنظيم بناء السلطة والتسلسل الاداري التي هي قطعةلا تتجزأ من أخلاق الحرفيين التقليديين من جديد بحيث لا تعيق التطور ولا تحدد استعدادات الانسان. كما يجب ان نعيد النظر في العلاقة بين المعلم - الصانع - والقلفة، والمراحل التي اظهرتها هذه الحقائق، وتوفيقها مع الحياة الفعالة. كما تجب مواجهة المؤسسات التي تضغط على التطور والانكشاف باستمرار وتحد من كل ميل الى الانفتاح بنفس الشكل. ومن هذا المنظور فإنه على إسلام الحرفين بشكل خاص ان يعلن التغير العام لإعداد اشخاص أصحاب آراء تقدمية وروح فعالة للجيل الجديد.

ويجب ان لا يكون الشباب الناشئين الجدد اشخاص اصحاب اخلاق مسالمة واطاعة مطلقة، بل يجب ان يكونوا احراراً تماماً خارج ساحة التسليم والاطاعة الكتابية. وخاصة يجب ان يكونوا اصحاب حرية كاملة في تطوير الاعمال والتنظيمات الجديدة وايجاد التقنيات. إن حرية الاشتغال والارادة التي تؤمن لهؤلاء الوسط الملائم لتطوير قابلياتهم وانكشافها داخل المجتمع الدولي. وفي حالة العكس وكما بين بديع الزمان في كتاب المناظرات، انه اذا وضع الناس تحت ضغط المؤسسات او المجتمع فإنهم يفقدون الفرصة لامتلاك إرادة وفاعلية حرة، وبذلك يفقد المجتمع قابليته في العمل وطرح الامور الجديدة، ويظهر وكأنه يعمل بالسخرة، وإذا عمل عملاً جيداً يعمله برياء، ويعتاد الكذب والمداهنة في حرفته، ويحقّر من قبل الغير باستمرار ويشعر بحقارة نفسه. »ذلك لأن الشوق الذي هو بحكم البخار الممد لسعي الانسان ينطفئ ويخمد، فيسيطر عليهم ساداتهم وكبراؤهم، كي يظهروا وحدهم في الميدان، فيسمنون بأكل لحومهم ويحولون دون تفتح الاستعدادات« (٣٢)

لقد واجه بديع الزمان بقايا الاقطاعية في جميع مجالات الحياة، وسعى لتخليص الناس من ايديهم وكأنه في حرب معهم. إن الاهمية والصلاحية التي اعطاها للشخص ذات مغزى كبير: شخصية حرة ومستقلة. نوع من المثقفين المنورين الذي لا يقبل الفكر الذي يطرح امامه مباشرة، بل ينقده، ويفسره وفي النهاية اما ان يقبله او يرفضه. أليس هذا من واجبات المثقف المنور؟ ان سلوك بديع الزمان في هذا الموضوع واضح لأبعد الحدود.

»اَرَونى مفسداً يقول: اَنا مفسد، وما هو الاّ مفسد الا أنه يتراءى في صورة الحق، اَو يري الباطل حقاً، نعم؛ ما من أحد يقول: مخيضي حامض.. فلا تأخذوا شيئاً الاّ بعد إمراره على المحك، لأن أقوالاً مغشوشة مزيّفة قد كثرت في تجارة الأفكار... حتى كلامي انا لا تأخذوه على علاّته - بحسن ظنكم - لانه صادر عني فقد اكون مفسداً ، أو اُفسد من حيث لا أشعر، فعلى هذا تيقظوا! ولا تفتحوا الطريق الى القلب لكل طارِق. فليظل ما أقوله لكم في يد خيالكم، واعرضوه على المحك، فان ظهر اَنه ذهب فارسلوه الى القلب ، واحتفظوه هناك ، وان ظهر انه نحاس، فاحملوا على عاتق ذلك الكلام المنحوس كثيراً من الغيبة وشيّعوه بسوء الدعاء عليّ وردّوه خائباً اليّ.«(٣٣)

ان نوع الانسان الذي رآه بديع الزمان واراد ان يطوره هو انسان صاحب هوية وشخصية مستقلة وحرة. وليس نوع الانسان الذي اودع عقله وفكره لجيب الآغا او شيخه او اخيه الاكبر، او استاذه او معلمه، او الانسان الساكن والسلبي، والذي لم تتطور شخصيته والمحروم من الارادة والتفكير الحر، والذي لم تتطور قابليته وجسارته.

وكي تصير الاجيال القادمة اكثر فاعلية وحركية ومن اجل تقصير الطريق الموصل الى اعلاء كلمة الله فإن بديع الزمان يرى انه يجب ان نخلع بسرعة صفنا الاجتماعي العام الذي حملناه وجئنابه من اعماق التاريخ. وهذا الضعف هو الاستناد الى باب الدولة، وانتظار كل شئ منها. ويقترح بديع الزمان تخلص إنساننا من بلاء »الآمرية والمأمورية« ويدعي ان الطريق الى اعلاء كلمة الله تمر عبر تطوير وتعميم قطاعات الصناعة والتجارة والتقنية، لذلك يجب ان نعين خططنا واستراتيجيتنا الشخصية بهذه

الاستقامة. والحقيقة ان بديع الزمان قد فهم قيمة واهمية الحادثة في بدايات هذا القرن واقترح للامة استراتيجية حول ذلك:
»هو سلوكنا في المعيشة مسلكاً غير طبيعي، مسلكاً يوافق الكسل ويلائمه، ويداعب الغرور ويربت عليه، وهو المعيشة على الوظيفة الحكومية .. لذا لقينا جزاء ما كسبت أيدينا«(٣٤) . ويتضح من ذلك ان بديع الزمان يقيم جميع اشغال الدولة لتجميع الثروة والتطور الاقتصادي بأنها طرق غير طبيعية وانها تؤدي الى الكسل والغرور. والحقيقة لا يمكن ان نشاهد تعريفاً من الزاوية البيروقراطية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية على هذا الشكل الوجيز الا عند بديع الزمان. ان البناء الاجتماعي الاقتصادي »المثقل بالموظفين« والذي سماه ماكس ويبر البناء الإرثي هو هذا البناء. ان الضغوط الاجتماعية والسياسية زمن عصور امبراطوريتنا زرقت في اعماق روح انساننا »الآمريه« و»الآغاوية« و»الباكواتية«، و»الباشاوية« ، واهملت بشكل اضطراري وبشكل واسع اساليب وطرق الربح الطبيعي وصاحب المردود، وسيضطرهم للبحث عن الإقبال والاستقبال في ابواب الدولة. وهذا البناء غير الطبيعي ادى الى نتائج مفجعة وغير متوقعة في المجال الاجتماعي والثقافي. ولنستمع من بديع الزمان شكل النهاية المحزنة:
»ان الطريق المشروع للمعيشة والسبيل الطبيعي والحيوي اليها هو »الصناعة، الزراعة، التجارة« . أما الطريق غير الطبيعي فهو الوظيفة الحكومية والأمارة بأنواعها. وعندي ان الذين جعلوا مدار معيشتهم »الأمارة« – وان تسمّت بأي اسم كان – فهم في زمرة الشحاذين العاجزين المتسولين ومن زمرة المخادعين الحيالين.. وفي نظري ان الذي ينخرط في سلك الوظيفة أو الأمارة ، فليدخل اليها لأجل الحمية والخدمة للأمة والاّ لو دخلها للمعيشة والمنفعة فحسب، فلا يقوم الا بضرب من التسوّل، اذ ثبت أن حصر كل الوظائف فينا، أضاع علينا ثرواتنا بتسليمها ليد الاسراف، وان حصر العسكرية فينا شتت ذرارينا في الآفاق. فلو كان الأمر يستمر على هذا المنوال لكنا ضائعين منقرضين«(٣٥)
عند قيامنا بانشاء مستقبلنا باستقامة إعلاء كلمة الله وبوضع هذا الرأى بعين الاعتبار، يجب ان نضع »باب الدولة« في الخطة الخلفية، وان نعدّ الشباب الفعال الذي يستطيع إنشاء المؤسسات على المستوى العالمي يا مكانياتنا الشخصية.
إن جانب الحكمة الآخر في »أخلاق المنهج العوفي« هي قبولها لقالب استهلاك »رياضى«. ان اسلام الحرفي واسلام المجتهد مضطر للوقوف بعيداً عن جميع اشكال الاسراف والتبذير في مجال الإستهلاك والمصاريف. الاستهلاك الزائد، والجشع، وحياة الكماليات والتبذير لا تدخل في اخلاق المذهب العوفي. وإن بديع الزمان اوصى الأمة بحياة رياضية ذات فعالية وارادة وذلك بالحياة التي عاشها والكتب التي الفها، واصر على القول ان التبذير والصرعات الاستهلاكية هي من الانحرافات الاخلاقية للرأسمالية حتى أنه ألف كتاباً حول ذلك وسماه »رسالة الاقتصاد«. وقد طالب الامة في هذا الكتاب باصرار على الابتعاد عن الاسراف وقبول نموذج حياة بسيطة:
»ان الاسراف منافٍ للشكر واستخفاف خاسر وخيم تجاه النعمة، بينما الاقتصاد توقيرٌ مربح ازاء النعمة.
اجل! إن الاقتصاد كما هو شكر معنوي، فهو توقير للرحمة الإلهية الكامنة في النعم والاحسان.. وهو سبب حاسم للبركة والاستكثار.. وهو مدار صحة الجسدكالحِمية.. وهو سبيل الى العزة بالابتعاد عن ذلّ الاستجداء المعنوي.. وهو وسيلة قوية لإحساس ما في النعم والآلاء من لذة.. وهو سبب متين لتذوق اللذائذ المخبأة في ثنايا نعمٍ تبدو غير لذيذة.. ولكون الاسراف يخالف الحِكَم المذكورة آنفاً باتت عواقبه وخيمة.«(٣٦)
يتضح من هذا ان بديع الزمان يسعى لتوضيح اهمية شكل السلوك والحياة الاقتصادية، والرياضية، والحسابية من اجل إبعاد الناس عن جميع اشكال الجشع والاسراف، في المنظور النفسي والصحي والاجتماعي والاقتصادي.

النتيجة:

يمكننا ان نتوصل الى نظام حضارة باتخاذ المفاهيم العامة لبديع الزمان. ونستطيع تلخيص النتيجة التي توصلنا اليه بهذا

الموضوع على الشكل التالي: بالنسبة لبديع الزمان ان صفحة إعلاء كلمة الله هي صفحة يجب ان تتوصل اليها الامة مطلقاً. وذلك لان الامة لا تستطيع المحافظة على عزة الاسلام الا بالوصول الى هذا المستوى. ومن اجل التوصل الى هذا المستوى هناك حاجة للبناء العلمي والتقني، والصناعة التخصصية والمنتشرة، وللقطاع الزراعي. وإن العلم والتقنية التي نحتاج اليها سوف يستنبطها »اسلام المجتهد« من القرآن. ومن طرف آخر إن مؤهلات كادر إسلام الحرفي وإسلام المجتهد الذي سيوصل الامة الي صفحة اعلاء كلمة الله تتشكل من طرف الاسلام والمؤسسات والتقاليد الاسلامية، وسيتم تشكيل اخلاق مسلك »منهج « هذا الكادر من طرف اخلاق المنهج العوفي.

* * *

_

الهوامش

(١) صيقل الاسلام- المناظرات/ ٤٠٣

(٢) صيقل الاسلام/ الخطبة / ٥٢٧

(٣)صيقل الاسلام - الخطبة الشامية/ ٥٢٧

(٤) انظر بنيامين دوران، اجتماعي - اقتصادي، / ٩٠ وغيرها

(٥)A. Toynbee، مج١، / ١٨٤

(٦) ص ١٨٤- ١٨٥ B. Turner'Max Weber

(٧) صيقل الاسلام - محاكمات عقلية / ٤٣

(٨) ماكس ويبر والاسلام ، / ١٣٥ وغيرها B. Turner

(٩) NPQ، خريف ١٩٩١

(١٠) ابن سعد، الطبقات مج ٣، / ١٣٢

(١١) البداية ، مج ٣، / ٢٢٨

(١٢) التمثيل الثاني من الكلمة التاسعة والعشرين من كتاب الكلمات

(١٣) المكتوبات، / ٦١٣

(١٤) صيقل الاسلام - المناظرات ٤٠٢ - ٤٠٣

(١٥) احياء علوم الدين، مج ٤، / ٤٨١ وغيرها

(١٦) معرفة تامة / ٣٦٢

(١٧) ابراهيم حقي معرفة نامه، حققها بالتركية الحديثة فؤاد بشر، كيتان، إسطنبول ١٩٩٢م/ ٣٧٥

(١٨) المكتوبات / ٦١١

(١٩) الكلمات / ٣٥٣

(٢٠) صيقل الاسلام / ٦٦

(٢١) معرفة نامة / ٧٤٤ - ٧٤٥

(٢٢) سورة البقرة : ٢٦٩

(٢٣) من اجل معلومات اكثر انظر الماليلي حمدي يازير، مج ٢، / ٩١٣ - ٩٢٩

(٢٤) اللمعات ، / ٥٣٦

(٢٥) Turner، / ٢٠١

(٢٦) Turner، / ٢٠٣

(٢٧) الكلمات ، / ٢٤٦

(٢٨) . م.رودينسون، / ١٠١ وغيرها

(٢٩) صيقل الاسلام / ٤٩٥

(٣٠) بنيامين دروان، الحرفي ، ١٩٩٥م بنيامين دروان، الحرفي ، ١٩٩٥م

(٣١) من اجل المزيد من المعلومات انظر: صبري اولكن أر

(٣٢) المناظرات / ٣٥

(٣٣) صيقل الاسلام - المناظرات / ٣٩٠

(٣٤) صيقل الاسلام - المناظرات / ٤٠٣

(٣٥) صيقل الاسلام - المناظرات / ٤٠٣

(٣٦) اللمعات ص ٢١٢

_

المصادر المستفاد منها.

Amold Toynbee، معرفة التاريخ، مج ١، »ترجمة مراد بلكه«، منشورات بتاش، إسطنبول ١٩٧٨م.

-بديع الزمان سعيد النورسي، ديوان الحرب العرفي، إسطنبول ١٩٦٠م

-بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات (دون تاريخ«

-بديع الزمان سعيد النورسي، المناظرات، نشريات ينى آسيا، ١٩٩١

-بديع الزمان سعيد النورسي، اللمعات »دون تاريخ«

-بديع الزمان سعيد النورسي، المكتوبات، إسطنبول ١٩٥٨

-بديع الزمان سعيد النورسي، المحاكمات العقلية، الناشر دار سوزلر للنشر، إسطنبول ١٩٦٠

-بنيامين دوران، الاطروحات الموجبة للتغيير الاجتماعي - الاقتصادي في المجتمعات المسلمة، إسطنبول ١٩٩٥م.

-بنيامين دوران، من صفحة الإيمان الى صفحة الشريعة: مجلة كوبرو، عدد الشتاء ١٩٩٥م

-بنيامين دوران أوغلو، من إسلام الحرفيين الي اسلام النخبة، مجلة ينى دركى، العدد ٦٠٥ انقره ١٩٩٥م.

-Beryan S.Turnerالاستشراف والرأسمالية والاسلام، (ترجمة) أحمد دميرخان، إسطنبول ١٩٩١م

-Beryan S.Turnerماكس ويبر والاسلام، »ترجمة: ياسين أكتاي« انقره ١٩٩١

- طبقات ابن سعد، مج١

-ابراهيم حقي، معرفة نامه، (تحقيق بالتركية،. فؤاد باشار)، ١٩٩٢م.

- الإمام الغزالي ، احياء علوم الدين، مج٤، ١ترجمة علي ارسلان، إسطنبول، ١٩٩٣م

- ماكسيم رود ينسون، الإسلام والرأسمالية ، »ترجمة اورخان سودا« إسطنبول ١٩٧٦م

-Pavl Feyerabend، العلم في المجتمع الحسر»ترجمة احمد كاردام،١٩٩١م

- صبري اولكن ار، الدين والذنية، إسطنبول ١٩٨١م.

***